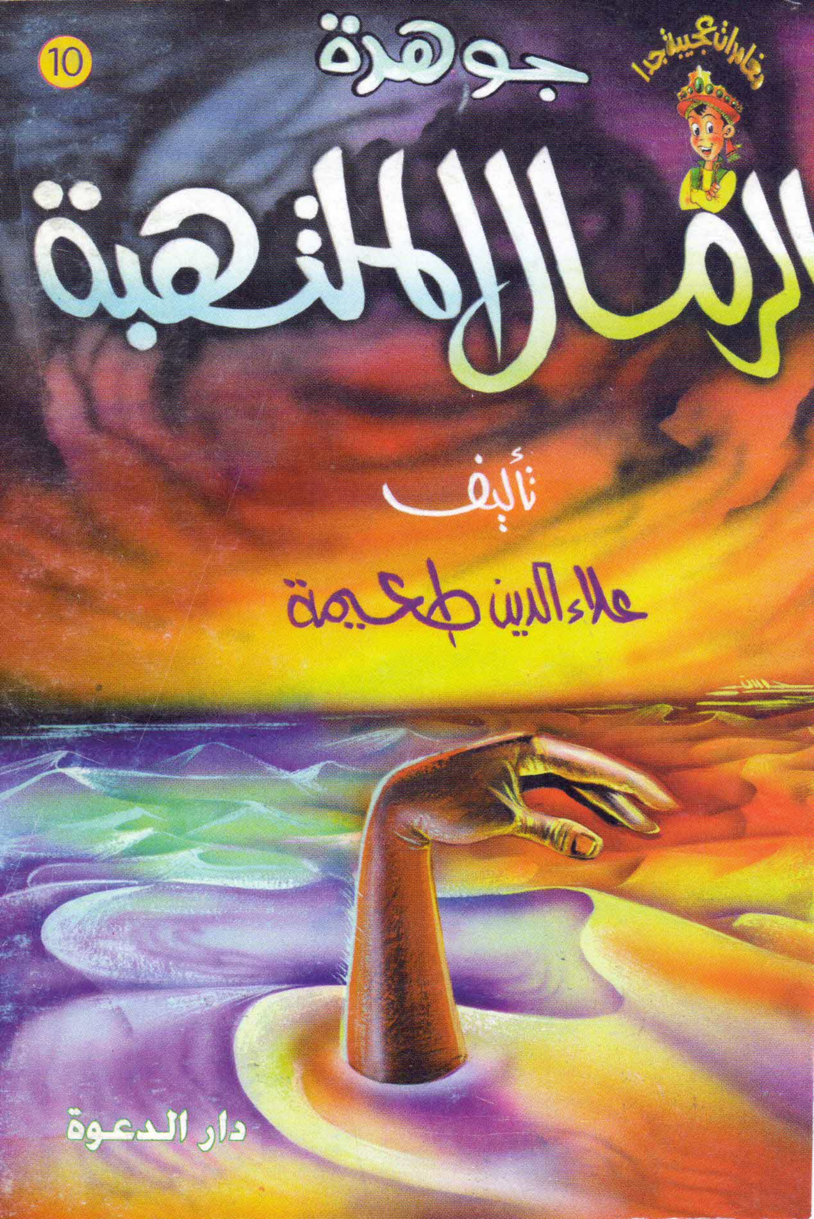
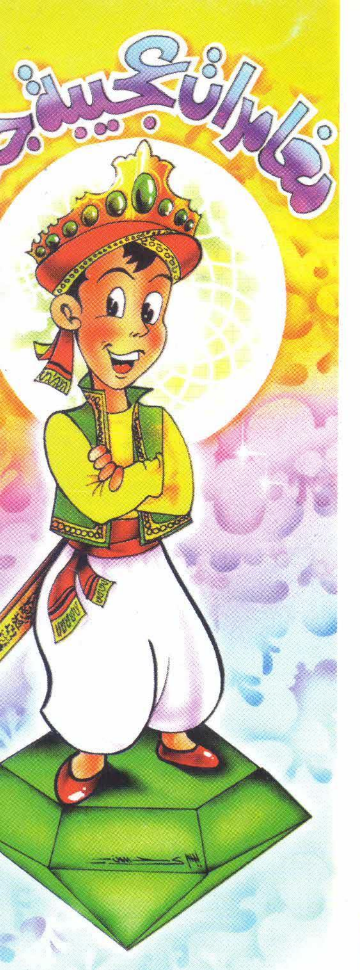

10
مغامرات عجيبة جدا
جوهرة
الرمال الملتهبة
تأليف
علاء الدين طعيمة
دار الدعوة



سلسلة مليئة بالإثارة والتشويق .

أغرب الرحلات والمفارقات .

تجمع بين المتعة والمعرفة .

لا غنى عنها في الرحلات والبيت والمواصلات

جوهرة

الرمال الملتهبة

* إخترق مؤمن جموع الجماهير وقفز داخل الميدان وقال لشيخ القبيلة أنا أتحدى هذا الرجل وعلت ضحكات القوم وانفجرت السخرية بالكلمات اللازعة وزاد الصخب ...

* وفجأة أبهر مؤمن الجميع عندما أطلق السهام الخمسة الواحد يسبق ما قبله بسرعة مذهلة فأصاب الخمسة أعواد فساد صمت رهيب.

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي : ٢ شارع منشا ـ محرم بك ـ الإسكندرية
ت : ٤٩٠١٩١٤ ـ فاكس : ٥٩٥١٦٩٥
مكتب توزيع القاهرة : ٣٨٣٢٧٤٧

سلسلة

مغامرات عجيبة جداً



جوهرة

الرمال الملتهبة

الطبعة الأولي
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

رقم الإيداع القانونى
١٩٩٦/٥٩٤٧

الترقيم الدولي : 0-107-253-977

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
٢ش منشا محرم بك الإسكندرية.
ت: ٤٩٠١٩١٤ـ ٤٩٠٧٩٩٨ ـ فاكس : ٥٩٥١٦٩٥.

يطلب من الدار العربية للتوزيع
١٧ ش توفيق الهلالي ـ من فيصل ـ التعاون ـ الجيزة ـ ت: ٣٨٣٢٧٤٧

جوهرة
الرمال الملتهبة

تاليف: علاء الدين طعيمة

رسوم : يسري حسن .



«مغامرات عجيبة جداً»

قمة الفرح أن يعثر الإنسان علي تاج أثري عتيق خال من الجواهر ولكن تكون هي قمة الإثارة والمتعة عندما تتابع وتقرأ مغامرات ذلك البطل وهو يسعي للعثور علي جواهر هذا التاج ، إنه يسافر في رحلات عجيبة عبر البحار والأنهار فيتعرض للأخطار والأهوال ويري نماذجاً غريبة من البشر وعجائب الأرض والسماء من الإنس والجن والأحياء والأموات وفي كل مغامرة بعد العناء والصراع مع المكان والزمان يفلح في إضافة جوهرة جديدة إلي التاج .

علاء الدين طعيمة

ليكن فى علمك أن المكان الذى تبغيه بعيد جداً... إنه بعيد عن الحياة لدرجة مخيفة...هناك الصحاري...شديدة الجفاف... الهواء أيضاً جاف ... وسقوط المطر نادر جداً.. إن من يعيشون هناك لا يحصلون على الماء بصورة منتظمة،بل هم فى صراع دائم من أجل الحياة...اعلم أن جسمك أيضاً لا يستطيع تكوين الماء ذاتياً.. كما أنه لا يحوى مقصورات لتخزينه.

فإن كنت مستعداً لخوض الصحراء الملتهبة... فاعلم أن المرء يموت خلال خمسة أيام أو أقل إذا لم يكن لديه الماء... وأنك سوف تصطلى بحرارة لا تطاق.. واحذر سكان الصحراء فهم ليسوا لطفاء

على الإطلاق وخصوصاً إذا كانوا من الطوارق. . .
ثم إنى أتعجب من صلابة رأسك أيها الغلام. . أى
«جوهرة» هذه التي تدفعك لخوض سفر لم يخضه
مدنى قبلك؟!

كان مؤمن يتذكر هذه العبارات التى أخذت
صورة التحذير، والتى كان يتفوه بها بدوى من أقدم
قبائل الصحراء الغربية . . . عندما كان الأمر الجديد
هو التوجه إلى الصحراء الكبرى وقدكتب على التاج
كلمة « **تو مبكتو** » . . . لقد استدل مؤمن على أن
هذه المدينة واقعة على الحافة الجنوبية للصحراء
الكبرى فى صميم قلب القارة الإفريقية. . . أراد
مؤمن أن يعثر على جوهرة التاج العاشرة. . . وبدت
هذه الرحلة شاقة فعلاً والطريق وعرٌ خطير.

لقد عبر الصحراء الغربية لمصر من الشمال وتقابل مع البدو فى كل محطة ، وعبر ليبيا مستخدماً طرق القوافل، ومر بجنوب تونس.

وها هو الآن على حدود الجزائر بعيداً عن البحر.

كان يحلم أن يعود إلى أمه حاملاً هذه الجوهرة... ولكن قلبه لم يكن مستريحاً. إن الرحلة هذه المرة تعنى احتمال الموت عطشاً أو لدغاً أو جوعاً أو قتلاً.

ولقد انتظر أن يصاحب إحدى القوافل التى ستخترق الصحراء ناحية الجنوب، ولكن يبدو أن هذا أيضاً كان من الأمور العسيرة.... فها هو يتقلب بين أسواق مدينةبسكرة الجزائرية دون أن يعثر

على مأربه، فمعظم القـوافل لم تكن تبغى أكثر من بقعـة القلنيعـة، أو الاتجاه غرباً نحـو العريشـة قرب حدود المغرب العربي. . . وكان بعضهم يمنيه بإمكان عثوره على من يحمله معه حتى عين صالح فى بداية الجنوب الجزائري.

وإن لم يكن هذا ليمثل نصـف المسافة التى يحلم مؤمن بالوصول إلى منتهاها.

وجلس ذات يوم يمضغ بعض حبـات اللبان وهو يفكر. . . ويقول فى نفسه « يا إلهي. . . يبدو أنه من المستـحيل أن أصل لهـذه التمبـكوتو. . . لا أعرف لماذا يقذف بى تاج جدى إلى هذه الأماكن مـستحيلة الوصول؟. . . إنه لشئ عـجيب، ماذا سيفـيدنى أنا من هذه الرحلة العسيرة؟ولقـد بدأت من أولها أشعر

باليأس ».

مرت أيام وأيام وهو على حاله يتنقل فى حدود ضيقة، ويتنسم أخبار القوافل.

وبدا أن أهل الصحراء أنفسهم لا يجرءون على مثل هذه المغامرات الخطرة.

كان يسير قليلاً حتى يبتعد عن العمران ، ثم يقف ناظراً فى اتجاه الجنوب. . يتأمل الأفق اللانهائي، وأحس بشرارة التحدى تشعل قلبه، وأحس أن الصحراء تناديه وتتحداه وتقول له « متى يمكنك اختراقي؟ ».

ولقد صبر صبراً طويلاً. . وعاد إلى العمران يتنسم من جديد أخبار القوافل وقد قرر أن يسافر

مع أى قافلة إلى أى مسافة وقال فى نفسه « مالى أريد أن أحصل على توصيلة حتى تمبكوتو؟ على أن أقطع الطريق فى محطات.. ومن كل محطة سأجد ما يساعدنى فى الوصول لأبعد منها ».

وكأن القدر يخبئ له أمراً آخر.. فلقد توقفت حركة القوافل تماماً هذه الأيام... وقال فى نفسه «لا يعقل أن أقطع هذه المسافات المرعبة وحدي... ماذا أفعل يا ربي؟ » وفى إحدى الأمسيات، بينما كان يتجول فى أحد الأسواق المضيئة... إذ وقع بصره على شاب أجنبى الهيئة وهو يتفق مع أحد البدو على شراء قطيع من الجمال، ويبدو أن البدوى كان يستغل الموقف، ورفع السعر وغالى فيه.. وبدا الضيق على الأجنبى ، ولكن مؤمن

سـريع البديهـة قرر أن ينقـذ الموقف، ؛فتـدخل بين الاثنين بسرعة وقال للأجنبي:

ـ سيدي. . . أنا سمعتك تتكلم عن الجمال . . . أنا أعرف مكاناً يبـاع فيه الجـمل بنصف الثمن الذى عرضه عليك هذا البدوي. . تعال معي. .

انفـرجت أسارير الأجنبـى الذى كان يبـدو على لكنتـه أنه انجليزى الأصل، وسار مع مـؤمن، ولكن البدوى جـرى وراءه ونادى عليه واسـتوقفـه ثم قال له:

ـ سـيـدي. . . سـأبيـعك هذه الجـمـال بنصف الثمن. . ما رأيك؟

نظر الأجنبى فقال له مؤمن:

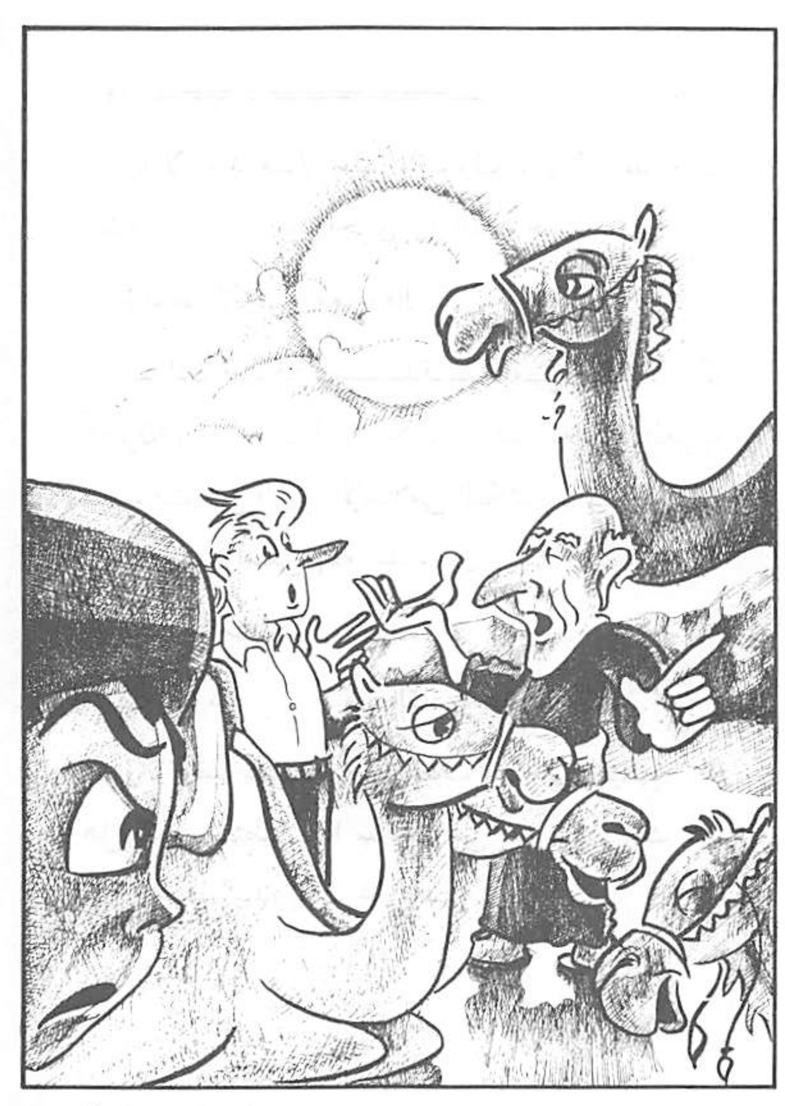
ــ أعتــقد يا ســيدي. . أن هذا البــدوى صادق الآن
فيما قال . . اشترى منه قبل أن يرجع فى كلامه.

ونجحت الصــفقة، واشترى الرجل قطــيع الجمال
من البــدوى بنصف الثــمن ، ولم يغادر الســوق إلا
ومؤمن معه وقال له فى الطريق:

ــ أنا لا أعرف كيف أشكرك. . . ما الذى دفعك
لمساعدتي؟ فقال مؤمن:

ــ سيدي. . إن الساكت عن الحق كالشيطان . . .
كما أن ديننا يحثنا على تغــيير المنكر بكافة الوسائل،
وأنا أدركت أنك ستنخــدع وسيستــغلك هذا البدوى
النصاب.

ظن الأجنبى أنه يمكنه إعطاء مؤمن مكافــأة مالية
على صنيعه، ولكن مؤمن رفض بشدة وقال له:



أنا لا آخذ مـالاً على معـروف ، ولا أنتظر منك الشكر . . . أنا أريد أجرى من الله وحده.

تباسط الأجنبى معه وقال:

ــ إذن فـلنكن أصـــدقـــاء مـن الآن . . . أنا «جون» . . . جون أرثر بيكر . . . لقد تعلمت العربية وعـرفت عن الدين الإسلامى الـكثيـر، وأنا هنا من أجل هدف أسعى إليه منذ سنين.

فقال له مؤمن:

ــ وأنا مؤمن . . . من القاهرة عاصمة مصر . . .

وأنا أيضاً هنا من أجل هدف مهم فى حياتي . . . هل أكون مـتطفلاً إذا سألتك عن سـبب شرائك كل هذه الجمال؟يبدو أنك على سفر.

قال جون:

- فى الحقيقة إن رحلتى طـويلة جداً. . . أنا أعتبر نفسى رحالاً مـستكشفاً. . . تخـيل يا مؤمن، أنا لا أسـعى من أجل التـجـارة، أو البـحث عن كنز من الكنوز، ولكنى سأقطع رحـلة قد يكون فيهـا موتى وحتفي، فقط حتى أشرح للدنيا تفاصيل هذه الرحلة وأكتب للعـالم عن كل تل وكثيـب يقابلني. . . هذا فى حـد ذاته عـمل عظيـم. . . ثم إن هناك مـدينة نسمع عنهـا فقط، ولم يصل إليهـا أى من الرحالة حتى الآن. . . أنا أجـعلها وجـهتى وهدفى الأخـير ومحطة الوصول.

ازداد شغف مؤمن بكلام «جون» وقال له:

ـــ أى مدينة يا جون ستنوى الذهاب إليها؟

نظر جون نحو الأفق البعيد كأنه يراها على البعد وقال ببساطة:

ـ تمبكوتو

كاد مؤمن يطير فرحاً فى الهواء وهتف فى جون:

ـ أحقاً يا جون؟... إنها وجهتى أيضاً.. لكم أنا سعيد لذلك.. أخيراً عثرت على من يصاحبني.

ابتسم الإنجليزى النحيل ذو الشعر الأصفر، والعينين الزرقاوين والبشرة الحمراء وقال له:

ـ أنا أسعد منك يا مؤمن.. لقد تمنيت منذ رأيتك أن أعرض عليك الفكرة... هيا حتى لا نضيع الوقت... فأمامنا عمل شاق حتى نعد القافلة للرحيل.

وهكذا فقد تم للغلام المسلمِ مـؤمنٍ أن يتجهز مع قافلة أعدت خـصيصاً لخوض الرحـلة، وكأنها على موعد مع قدره المحتوم.

وبعد ثلاثة أيام من التحـضير والتجهـيز، كانت القافلة ذات صـباح تخترق قلب الصـحراء الكبرى فى طريقها إلى تمبكوتو.

***

عشـرة جمـال محـملة بالزاد والمؤن، وحمـارين يحملان متاع مؤمن وجـون. . أما جون فبذل جهداً عظيمـاً حتى يقنع أحد البـدو من خبراء الصـحراء؛ ليـقـدم على مـثل هذه الرحلة كـدليل للقـافلة فى غياهب الصحراء الموحشة.

كمـا أنه دفع مالاً كـثيـراً لأربعة من البـدو حتى يخرجـوا معـه فى هذه الرحلة كمـحننين للجـمال «ساحبو الجمال».

ومن ثم فإن الأمـر لا يخلو من حاجة مـاسة إلى بدوى طاهٍ. . . يكون دارساً مـاهراً لأساليب الطهى فى الصحراء وكيفية توفير الغذاء والماء. . . حتى هذه الكلاب المتـوحـشـة التى تحـرس القـافلة. . . اشتراها؛ حتى يكون بذلك قـد نفذ كل ما قرأه فى



كتاب رحلات الصحراء الذى حَرَكَهُ مِنْ البداية إلى المغامرة بحياته فى سبيل كشف الأماكن التى لم تكتشف من قبل.

وكانت القافلة كلها خاضعةً لهذا الدليل خضوعها للقائد الخبير... فكلمته كحد السيف... فهو الذى يختار الطريق وهو المسئول عن سلامة الحيوانات والمؤن والعتاد... وهو الذى يقود الكلاب المتوحشة للحراسة.

كانت القافلة تسير فى قطار واحد، يسحبه رجل واحد، ويرتاح على الجمال آخران.

وفى الخلف رجل يتابع حركة الجمال، يدور حول القافلة ويركب بعض الأوقات للراحة ثم ينزل ويلم

وبر الجمال الذى يتساقط عن أجسادها دائماً، فكانت خدمته حول القافلة سيارةً دائريةً.

وبعد نصف النهار يتناوبان الخدمة مع الآخرين ، وهكذا كانت القافلة تتهادى متقدمة بخطوات فاتنة فى حركة وئيدة يسمع لكل خطوة صوت الأجراس المعلقة فى صدور الجمال.

وكانت بداية الرحلة مشجعة، فها هى القافلة تقطع مسافات لا بأس بها . . . ولكنها فى الحقيقة لا تعنى سوى نقطة مثل سن الإبرة على خريطة المسافة إلى تمبوكتو.

ودار الحديث بين مؤمن وجون عن دوافع المغامرة وحكى جون حكايته فقال:

لقد قرأت عن هؤلاء الرحالة الذين يجوبون الأماكن البعيدة عن العمران، ولقد سمعت وقرأت عن الفرنسي «رينيه كاييه» الذى وصل إلى تمبكوتو قبل ذلك، ولكنه كان يتوقع أن يجد بها القصور والكنوز.. فلم يسعده الحظ بذلك... وإن كنت أشك فى وصوله إلى هناك، وأحسست أن العالم يحتاج لمن يثبت كلامه بعد رحلته الطويلة أو يكذبه ولقد وقعت فى نفس المآزق التى وقع فيها، وأكاد أشبهه فى نفس بدايته.. فعندما كنت أبلغ من العمر الخامسة عشرة.. جئت إلى أفريقيا ولكن لم يسمح لى بالتوغل فى الصحراء.

وباءت محاولاتى كلها بالفشل، وعدت مرة ثانية فلم أفلح، وها هى المحاولة الأخيرة.. لقد عشت

بين البدو وتعلمت عاداتهم، ودرست لغة العرب ودينهم.. وكان الأهالى يحسبون أننى مصرى قد اختطفنى بحار فرنسى وعشت فى فرنسا، وتربيت فى انجلترا ، ويبدو أنهم قد صدقّونى وعطفوا عليّ، ورغم ذلك لم تكن معاملتهم طيبة إلى حد بعيد؛ فلقد داوموا على معاملتى كعبد لديهم... ولكن كل ذلك مكننى بعد سنة كاملة أن أحصل على تصريح يمكننى من السفر فى الصحراء... فلقد أذهلت موظفى القنصلية بموهبتى العربية البدوية.

كان مؤمن يتابع حديث الانجليزى جون باستغراب شديد وسأله:

ـ جون ... عزيزى جون ... ما هذا الذى يدفعك لكل هذا العناء؟ مرتان تحاول السفر فى قلب

الصحـراء.. ثم تمضى عامـاً كامـلاً تُعامل مـعاملة العبيد.. لماذا كل هذا؟

ابتسم جـون وهو يهتـز مع حركات تقـدم الجمل وقال له:

ــ هذه هواية ولا أظن أن دافـعى للرحلة أغـرب من دافع خـروجك أنت أيضاً.. ثم إن هناك جـائزةً كبيرة أعلنت عنها ملكة انجلترا لمن يكتشف الصحراء الكبـرى... .ها قل إذن.. مـا الذى دفـعك أنت لخوض غمار هذا العمل الانتحاري؟!

ابتسم مؤمن وقال له:

ــ هذه حكاية طويلة... اسمع يا سيدى ...

كان الحديث هو الملاذ الوحيد لهما من الملل.

فكل شئ الآن ما هو إلا رمل أصفر لا نهاية له. . . ولقد رفع الطاهى يده للدليل الذى كان يركب الجمل الأول «وتبادلا إشارات معينة كان نتيجتها. . . «استراحة ». . . للطعام وراحة للحيوانات.

وانتخب الدليل مكاناً صالحاً للمعسكر، وهبط الطاهى فأقام خيمة الطعام. . . ثم أشعل النار وأخذ يعد الوجبة، بينما كان باقى الرجال يعتنون بإطعام الجمال والكلاب.

ولقد تناولوا جميعاً طعامهم، وبدا أن الجميع فى حالة معنوية عالية. . وهكذا فبعد أن استراحوا قدم الدليل وقال لجون ان عليهم المبيتَ فى ذات المعسكر على أن تستكمل الرحلة فى الصباح الباكر.

وفى الصباح كانت النقطة تتحرك ببطء شديد فى

الصحراء الخاوية من أى شئ.

ولقد لاحظ مؤمن أنه كلما تقدمت القافلة تغيرت طبيعة الصحراء التى تسير عليها... لقد أصبحوا الآن يسيرون على كثبان رملية عبارة عن تلال كبيرة تشبه الأمواج فى البحر ، وبدا أن هذا البحر الرملى لا نهاية له... ولقد انتهت الأحاديث، وانتصر الملل فى النهاية، وأصبحت الرحلة صامتة إلا من صوت الأجراس.. والحرارة لا ترحم وكأن الأرض التصقت بالشمس فى هذه الناحية.

وفجأة وبدون مقدمات سمعوا صوتاً غامضاً مخيفاً... فتنبه جون ومؤمن مذعورين، ولكن البدو لم يهتموا للأمر وهرع البدوى السائر نحو جون وقال له:

ـ لا تبتأس يا سيدى . . . إنها الرمال المغردة. . . أو المطبلة

هل سمعت عن ذلك من قبل؟

ضحك جـون رغم تكرار الصوت الرهـيب وقال لمؤمن المنبهر المذعور:

ـ هذه أول مرة أسمع هذا الـصوت. . ولكنى قد قرأت عنه. فعند انزلاق بلايين الجبـيبات الرملية على السطوح المنحدرة لآلاف الكثبان يحدث هذا الصوت له صدى قوى ؛ فيصنع دوياً هائلا يروع القلوب.

وساد بعـد ذلك الصمت القاتل. . وامتـد الخوف لقلب الغلام مؤمن ، وأحس أنه قد ضاع وسط هذه الصحراء.

ولولا مظاهر الحيـاة التى تسيـر معه لمات رعـباً،

وسأله جون ليخـففـ من حدة الملل - بماذا تشعر يا صديقي. . . الآن؟

قال له مؤمن:

ـ أشعر أن الـله أقوى وأكبر من أى اهتـمام آخر بأى شئ آخر.

تعجب جون وقال له :

ـ مـاذا جعلك تفكر فى الله الآن؟ المجـال ليس مجال الدين هذا الوقت.

قال مؤمن:

ـ هنا فى هذا البـساط الـذهبى المتمـوج. . ليس بينى وبين الله حجاب.

هذه الأرض، وهذه السـمـاء، وأنا وربي، بالليل

كنت مستيقظاً أرى النجوم وأتعجب من صنعها، وأحسست أننى الوحيد فى عالمنا الذى يحس بمعنى وجود الله.. هذه الصحراء إعجاز يا جون.

ضحك جون وقال له:

ـ هذا ما أشعر به أنا أيضاً.. صدقني.. ولكن ألا تشعر الآن أنك قريب من الموت يا مؤمن؟

قال مؤمن:

ـ لا ينبغى للإنسان أن ينسى الموت أبداً.. لابد أن يذكره فى المدينة والصحراء وفى البيت والشارع.. إنّ ذكر الموت حياةٌ يا جون. لقد قال رسولنا ﷺ [أكثروا من ذكر هادم اللذات].

فامتعض وجه جون وقال:

- نحن نكره الموت ولانحب أن نذكره أبداً. . .
فكيف تديم ذكر الموت ويحثكم على ذلك رسولكم؟

فقال له مؤمن:

إن لنا داراً آخرة. . . لن تأتى إلا بعد الموت. .
فلو نسينا الموت سننساها، ولا نعد لها العدة ولا
الزاد، فمن نسى الموت نسى الآخرة. ثم اعلم أن
حياتنا كلها تشبه هذه الرحلة التى نسير فيها أنا وأنت
« غرباء » ليس هنا مكاننا، ولا يمكننا أن نعيش فى
هذه الصحراء. . لابد لنا من عودة، وعودة الإنسان
من رحلة الدنيا تكون فى الآخرة حيث الحساب
والجزاء. لقد قال رسولنا ﷺ [كن فى الدنيا كأنك
غريبٌ أو عابر سبيل] ويقول ابن عمر رضى الله
عنهما فى ذلك « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا

أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك » . يا جون .. لقد قال الله تعالى ﴿ **وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت** ﴾.

سمع جون هذه الكلمات المنيرة فشقت طريقاً نافذاً إلى قلبه.. فاهتز وكاد أن يبكى إلا أنه استعصم، ولم يقطع حلاوة الحديث سوى الدليل الذى جاء مهرولاً من مقدمة القافلة بعد أن أوقفها وقال بفزع لجون:

ـ سيدي... كارثة يا سيدي... هناك عاصفة رهيبة فى الطريق إلينا.

فنظر جون لمؤمن وقال :

ـ يبدو يا مؤمن أن كلامك صحيح.. ها هو

الموت يذكرنا بنفسه حتى نذكره.

لم تمضِ دقائق حتى كانت القافلة تستعد لمواجهة عاصفة الصحراء... إن مؤمن وجون لم يكن أحدهما يدرى معنى العاصفة الرملية فى منطقة رمال متحركة وكثبانٍ كالموج من الرمل الجاف الخفيف.

لقد صُنعت خيمة سريعة والتفت الجمال حولها ثم بركت تحيط بها ، وبالداخل تكدس أعضاء الرحلة وبدأت النُذُر.

صفيرٌ مخيف، ثم اشتداد لريح صفراء تحمل أطناناً من الرمل تقذف بها الوجوه، وفجأة عتت العاصفة وتحولت الصحراء إلى الجو وكأنها تتقلب من شرقها لغربها ومن أسفلها لأعلاها.

ولو كــان فى الأرض شجــر لانقــصم، فهــا هى الجــمال لا تقــوى على مقــاومــة الريح؛ فاندفــعت تتــدحرج كــالبرامــيل وتلاشت، أما الخــيمــة طارت واختفى أثرها ، وتبدد الشمل فى لحظة.

وكان من المســتحيل إذا رفــع الرجل إصبعــه أمام عينيه أن يره رؤيته. . ثم إنه لن يملك أن يصنع ذلك الاختبار. ..

إن العاصفة كانت مفنية إلى حدٍ بعيد . .ــ وماذا عن مؤمن وصاحبه.

لقد اخــتفى أى أثر للبدو، ومحــيت القافلة من الوجود كــأنها نسفت نــسفاً، ولم يكن ســوى جون الذى كــان متــأبطاً ذراع مــؤمن وقــد التــفا حــول

بعضهما يتدحرجان كشجرة جافة فى قلب الصحراء. . . وبعد زمن من المقاومة المستميتة. . . مرت العاصفة ، وهدأ الجو وترسب الغبار فى الهواء فحط بهدوء على كثبان من رمل لم تكن إلا مقابر للجمال والبدو والزاد والماء.

ولقد أخذ مؤمن وجون ينفضان عن نفسيهما أكداس الرمل التى حُشرت فى كل فتحة من جسميهما، وبدا أن جون قد أصبح خاوى الوفاض، ومؤمن أيضاً لا يملك إلا ملابسه. . . ها هى الصحراء تتحدى من جديد. . وقفا ينظران بحسرة حولهما. . . الكل قد اختفى، والأفق اللانهائى فى سكون يخرج لسانه من كل ناحية . . .هل السير سيكون شرقاً أم غرباً أم شمالاً أم

جنوباً؟

أين الماء؟ . . . خمسة أيام ثم الموت ما دام ليس هناك ماء . . . أين الطعام؟ أين الحياة؟

فى أى بقعة من الدنيا هم الآن؟

***

صاح جون وكأن لوثة قد أصابته فى عقله:

ــ مؤمن... لقد رأيت الله يا مؤمن... أنى أراه الآن... نعم أراه... أراه كما سهرت أنت بالليل حتى تراه... أراه بقلبي، إنه الآن يعلمنى كيف أدعوه.. وكيف أنه الواحد الذى يحى ويميت...

جلس مؤمن على الرمل فى حيرة، فلما رأى حال جون قال له:

انظر لقول الله تعالى فى أمرنا هذا يا جون لقد قال:

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ

الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس:٢٢]

فصاح جون وقد أخذ منه الخوف مأخذاً:

ـ والله . . . لإن انجانا من هذا الضياع لنعبده حق عبادته، ولا نخالف له أمراً أبداً.

ابتسم مؤمن وقال له:

ـ اسمع الآية التى تليها فلقد قال تعالى بعد ذلك:

﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس:٢٣]

طأطأ جون رأسه للأرض ثم رفعها ناظرا إلى

السماء وقال:

ـ هذا قدرنا يا مؤمن.. . الموت فى هذه الغربة الحارة القاحلة.

ضحك مؤمن بشدة وقال له:

ـ لا تكن أبلهاً يا جون.. . لابد أن يكون ظنك بالله حسناً وتوقع الخير، ولوكنت تراه شراً..

فثار جون وقال بسرعة ورعونة:

وأى خير فيما نحن فيه الآن؟.. وماذا أظن من الخير بعد الذى رأيناه الآن.. . كيف تحسن الظن بالله؟

فقال مؤمن وابتسامته لم تغادر فمه:

ـ إن الله عند ظن العبد به..انظر.. . عند الظن

تجد الله.. أى ظن شئت .. لوكان ظنك بالله .. أنه سيصيبك بالخير وجدت الله عندك بالخير، وإذا كان ظنك بالله أنه سيصيبك بالشر والحزن لوجدت الله عندك به... فهيا نحسن الظن بالله يا جون ونتوقع الخير... لأننا لا ندري، ونَظَرُنَا قاصرٌ عن تحديد الغيب ، فقد يكون فى هذه العاصفة خيرٌ ونجاة لنا من أمر كان أشد علينا منها.

بدا على جون أنه قد اقتنع بكلام مؤمن فقال له:

ـ وماذا علينا أن نفعل الآن يا مؤمن؟ أنا فى حالة يأس شديدة.

قال له مؤمن:

ـ علينا الآن بالراحة ومع الليل نبدأ السير إلى

اتجاه الجنوب ، فالنجـوم سوف تدلنا على ذلك، ثم ان السير بالليل فى الصحراء محبذٌ لمن فقد الماء. . . والله معنا يا صديقي.

هكذا المـغـامـرة لا تـعنى سـوى المخـاطر والمفاجآت. . . فلقد كانا فى حالة يرثى لها، وبدا أن الحياة تنحنى للموت. . . فـها هو جون قد تمكن منه اليأس ، وأصبح يتمنى شربة ماء .

كل ما يطلبه هذا الإنسان « شربة ماء » أما مؤمن إلى حدٍ ما و رغم الخوف الذى ينهب قلبه كان رابط الجأش يعلـم ويؤمنُ بأن ما أصاب الإنسـان لم يكن ليخطأه وما أخطأه لم يكن ليصيبَه فهذا قدر الله .

ولكن الجـفـاف بدأ ينحل الجلد وبدأت الشـمس

تشوى الجسد شياً. . . وقال جون بصوت بحيح :

- سنموت يا مؤمن. .إنا هنا فى المحطة الأخيرة.

ولقد سارا مشـــواراً طويلاً دون أن يعثرا على أى شئ، ومضــت ثلاثة أيام دون ماء ، وانخــدع جون فى الظهيـرة بالسراب عــدة مرات. . . يظن أنه الماء وكان يجرى لاهثاً وراءه وعندما يصل لا يجده شيئاً.

ولاحظ مؤمن عن بعد شيئــاً تتقاذفه الريح، فلما أمعن النظر اعتقد أنه ملاءة من متاعهما الذى فقد فى العاصفة، فأشار لجون فضحك الأخير وقال له:

ـ مــلاءة؟!. وهل ســنشــرب الملاءة يا صـــديقى القتيل؟

أدرك مؤمن أنــه لا جدال مع يائس. . . فــجرى وراءها جَرْىَ منهك حتى أحضرها ، لقد تعلم جون

من مؤمن أن هذه الملاءة ستجلب لهما الماء. . فعندما أتى الليل فردها مؤمن وثبتها على أربعة أعواد من العشب الجاف، وعندما لاح الصبح كان قد أصابها البلل بالندى فأخذ مؤمن يعصرها عصراً فى قربة الماء الخاوية التى كانت بحوزته.

فحصل فى النهاية على جرعة ماء فرحا بها ورطبابها الشفاه المحمومة، وكانت عوناً لهما على بذر الأمل فى الصحراء.

ورغم ذلك القحط إلا أن مؤمن أشار على جون بأن يضع أذنه على الأرض يتسمع ، وهذه أيضاً تعلمها جون منه. . وذات مرة نام جون تحت ظل الملاءة فوضع أذنه على الأرض التى تغيرت تضاريسها من الرمال إلى سهول صخرية ملساء

تناثرت فيها تجمعات من جبال صخرية مخيفة الشكل والتكوين، ونادى على مؤمن بإشارة من يده ، وأشار إليه يتسمع معه.

وكان ذلك، فلقد تسمع مؤمن وجون وكل منهما ينظر للآخر وكأنه لا يصدق أذنه. . . وضحك جون وقال لمؤمن ببلاهة اليائس:

الماء هه؟ هذا صوت ماء؟ أليس كذلك؟مؤمن. . . لا شك أنه الماء . . . أليس كذلك؟

قال مؤمن وهو ينظر في ناحية الشرق من موضعها:

ـ صوت ماء. . هدير ماء. . .أو أنها خدعة صحراوية أخري. .

على العموم. . سنتجه صوب الصوت.

سارا يهـرولان رغم التعب الشديد، وبين الفينة والفـينة يلصقـان أذنيهـما بالأرض، فـأدركا أنهـما يقتربان من الماء حقاً.

ولاح لهمـا تجمعٌ صـخرى من بعـيد فـتوجـها نحـوه، ولقد شم جـون رائحة الماء فـجرى وجـرى وراءه مؤمن.

وبدت بحـيرة صغـيرة يتـرقرق ماؤهـا فى ضوء الشمس .

وقبل أن يلقى جون بنفسه فى الماء. أمسكه مؤمن من خصره وأبعده وقال له:

ـ هل جننت يـا جـون؟!. . أنت تعلم أن شُرب الماء البـارد بعـد هذا العطش والجـفـاف خطر مميت انتظر.

أخذ مـؤمن يبلل شفتى جـون بالماء، وبلل ظمأه شيئاً فشيئاً ، ثم شربا جـرعات خفيفةً جداً، وأحسا براحة لذيذة فى الظل الرطب للجبل، وبدا أن الحياة تضحك لهما من جديد.

ولقد فوجئ كلاهما بوجود بحيرة أكبر من السابقة وأن الماء ينحدر بـبطء من أعلى الجبل ليـصنع خريراً هو الذى سمـعاه من بعيـد، ولقد أدهشهمـا وجود أسماك فى هذه البحيرة الضحلة .

فكان جون يقفـز سعيداً فى البـحيرة وهو يمسك الأسماك .

ويقول بفرحة شديدة :

أسماك يا مؤمن. . . أســماك يا صديقي. . . لقد حصلنا على طعام . . . الطعام يا مؤمن . . . ها ها

ها . . . أسماك سأعد لك وجبة لن تأكلها فى أفخم مطاعم باريس ضحك مؤمن وقال:

- الحمـد لله . . . ربنا أوزعنا أن نشكر نعـمتك علينا. وقبيل الليل كانا يشويان أسماكاً كثيرة كبيرة، ونعما بوجبة هنية وبنومة لا يشوبها سوى الخوف من العقارب والحيات. . إلا أن الرماد المشتعل كان بمثابة أمان لهما من هذا النوع من الهوام.

ولقـد بقيـا يومين على هذا الحـال حتى انتـصب عودهمـا من جديد، وغـزت الدماء هذه العـضلات الجافة ودبت الـقوة من جديد، وبدا أنهمـا قد غذيا الأمل مرة أخرى فى تحطيم أسطورة الصحراء.

ولكن هناك ما لم يعملا له أى حساب. . . جمالٌ كثيرة تظهر فى المكان، وكأنهـا صاحبة الجبال؛ قام



جون يهتف ويقول لمؤمن:

ــ ما كل هذا النعيم؟ مؤمن. . . يبدو أننا نحصل الآن على قافلة جديدة. . . الماء والأسماك والجمال، افعل شيئاً يا صديقى من أجل السيطرة على هذه الجمال.

ولكن مؤمن لم يكن على هذه الدرجة من التفاؤل. . فها هو رجل ملثم يعتلى جملاً فارعاً وكان مدججاً بالسلاح.

اقترب منهما على حالتهما الرثة، ثم صاح صيحة غريبة ، فأصبح المكان يضج برجال مثله يعتلون الجمال.

وصاح فيهما الرجل:

ـ من دعاكما وأذن لكما فى الحياة بهذا المكان؟!

أى حق لكما فى هذا الماء؟

تلعثم جون وتردد مؤمن، وقبل أن ينطقا كانا مقيدين من معصميهما إلى الجمال ولم يكن لهما أن يحاولا المقاومة على الإطلاق؛ فليس من العقل اختبار القوة فى مثل هذه الظروف، وسارت بهما القافلة إلى تجمع قبلى من خيام ومراعٍ فى قلب القلاع الصخرية الرهيبة.

ولقد تعرضا للضرب والإهانة حتى صباح اليوم التالى وأخذ الأطفال يرمونهما بالحجارة ويرشقون جسديهما بالأشواك . . . وثارت ثائرة مؤمن؛ فجاءه رجل ملثم ونهره فقال له مؤمن:

ـ من أى البشر أنتم ؟ أتفعلون هذا بضيوفكم؟

ألم يكن لعابر السبيل لديكم شفقة أو رحمة؟نهره الرجل مرة ثانية وقال له:

ـ أنت من الآن عبد، ونحن نربطك هنا حتى تتعلم حياتنا دون أن يعلمك أحد، وبعد ذلك سنحل وثاقك أنت وصاحبك لتعملا كعبيد وسط العبيد.

فهتف به جون قائلاً:

ـ هل لنا أن نعرف يا رجل .. أى قبيلة أنتم؟

فقال له الرجل:

ـ الطوارق.

سقطت الكلمة فى قاع أمعاء مؤمن.. لقد تذكرها عندما حذره منها البدوى العربى فى بداية

الرحلة، وأدرك أنه سقط وصديقه فى قبضة أخطر قبائل الصحراء. . . القبائل ذات اللثام الأزرق، فلا تلبس النساء لثاماً كالرجال. وإنما رجالهم يغطون وجوههم أسفل العينين بنقاب بلون ثيابهم الطويلة الزرقاء القاتمة ذاتها ، وهذا اللثام يطلقون عليه النقاب، يستعمل فى الأساس للوقاية من تراب الصحراء، ولكن أحداً لا يعرف فى الحقيقة لماذا لا يسمح الطارق بأن يُرى وجهه بتاتا حتى فى خيمته الخاصة؟!

إنهم يعتقدون دائماً أن العمل شئ مهين.

فيحتفظون بالعبيد لخدمة الحقول وأشجار النخيل فى واحاتهم ولحراسة قطعان الخراف والماعز والإبل، ويعتقدون أن المهنة المجيدة دائماً هى القتال.

وهكذا وجد مؤمن نفسه عـبدا من ضمن الرقيق المستخـدمين فى الخدمة. . . ولقد تجلد هـو وصديقه الانجليـزى جـون، فكان تحت رحـمـة أى فـرد من القبيلة حتى الأطفال مـنهم. . مرة يخرج كفلاح فى حقول صحراوية، ومرة يرعى الأغنام ، ومرة يطحن حبوب البـقول، ويعصر الزيوت ، وليتـه كان يقابل بالمعاملة الحـسنة هو وجون ؛ فلقد كانا يحـرمان من الطعام فترات طويلـة، ولا يعرف أى منهما. . من هو المسئول عن رعايتهما فى القبيلة فصارا يتسولان الزاد والماء. . . حتى نفد صبرهما .

وذات يوم خـرجـا بقطيـع من الماعـز فى أحـد المراعى الغربية فدار بينهما حديث:

قال جون:



ـ مـؤمن.. لابد أن نهـرب.. لقـد تحطمت معنوياتى تماماً.

فرد عليه مؤمن قائلا:

أتظـن يا صديقى أن الفرار بسيط؟ ستكون على رجليك ويكونون على الخيل والجمال... تهيم فى صحـراء لا تعرف عنها أى شئ وهم يحـفظونها عن ظهـر قلب... حـتى إذا أفلـحنا فى الفـرار ... سنعود مرة أخـرى للعطش والجوع... لابد أن نجد حلاً آخر... فأنا أيضاً نفد صبرى يا جون.

وذات يوم فـوجئ مؤمن وجـون أن هناك تجمـعاً عاماً لكل شباب ورجـال القبيلة فى الوادى الفسيح، وبدا أن هناك أمراً جـديداً... ولما سأل مـؤمن أحد

الصبية قال له:

- هذه مسابقة فى الرمي.. .من يفوز بها سيخرج فى القافلة المتوجهه للجنوب حيث المدينة والحياة اللينة....

فلاحقه جون:

ـ ومتى ستخرج هذه القافلة؟

قال الصبي:

غداً... وهؤلاء الشباب يتصارعون اليوم من أجل الفوز.

وبدأت المسابقة... كان الشاب الملثم يشد قوسه تجاه خمسة أعواد من الشعير موضوعة على مسافة بعيدة، والفائز هو من يحرز أكبر عدد من الخمسة

باستخـدام خمس رميات بالسهام، ولقـد كان شيخ القبيلة يجلس وحـوله كبارها يتابعون المسـابقة ، أما النساء والأطفال فكانوا فى الناحيـة الأخرى يصفقون لذويهم. . . وتقـدمـوا الواحـد تلو الآخـر. . . من يصيب فوق الـعودين يعتبر فـائزاً، ويحق له دخول تصفيات أخري. . . حتى إذا أتموا عشرة رجال كانوا هم أفراد القافلة.

ولقد تابع مؤمن وجون المسـابقة، فلاحظا أنه لم يتعد أى من الرجال أكثر من ثلاثة أسهم، إلا واحد أحرز أربعـة أسهم، وفرح لأنه سيكون قـائد القافلة وحاول بعده كثيرون حتى يحرزوا أربعة ؛ فلم يفلح أى منهم، فوقف شيخ القبيلة. وقال لكل القبيلة:

ـ واحد فقط هوالذى أحرز أربعـة من خمسة؟!!

ألا يوجد رجل واحـد يحرز مـثله على الأقل؟ هل فنيت القبيلة من الرماة المهرة؟!!

لم يشـعر مـؤمن بنفـسـه عندما اخـتـرق جمـوع الجماهير وقفز داخل الميدان وقال للشيخ:

ـ أنا يا شيخ القبيلة... أنا أتحدى هذا الرجل.

وفجأة علت ضحكات القـوم وانفجرت السخرية تنطلق بالكلمـات اللاذعة. . . وزاد الصـخب ، أما جون فلقـد رثى لحال مـؤمن عندما دخل السـاحة، ودهش لجرأته.

وقال أحد الرماة مستهزأ:

لم يبق سوى العـبيد . . أن ينافسـوا أسيادهم. . ارجع أيها الصبى وإلا رشقت السهم فى قلبك.

ولكن شـيخ القـبيـلة وقف، فسـاد الصـمت، وانتظروا ما سيقول. . . فقال:

هذا الغلام الشـجاع قد تحدي. . . وعلينا قـبول التحـدي. . . والسهم غـلاّب. . . والله إن فاز في التحـدى فله الحرية هو وزميله، وله عندى جـملان بزادهما. . أما إن خسر التـحدي. . فلا حرية لهما بعد اليوم أبداً.

***

تصبب العرق من جبهة جون وارتعشت مفاصله. . . أما مؤمن فلقد ذهب إلى شيخ القبيلة، وطلب منه قوسه وجعبة سهامه فأعطاه إياها.

وتقدم نحو خصمه وقال له:

ارمِ يا فارس الطوارق.

كان الآخر فارساً مشهوراً فى القبيلة برميه، وكانوا يعتمدون عليه فى الصيد والحرب والغارات ، فتقدم وشد قوسه فأصاب العود الأول والثانى والثالث والرابع، وحالفه التوفيق فأصاب العود الخامس أيضاً. . فوقع جون على الأرض يندب حظه عندما علت هتافات الناس معجبين بفوز صاحبهم،

أمـا الغلام المسلم مـؤمن فـتقـدم إلى منصـة الرمى واشـرأبت الأعناق وانحبـس صوت جـون وتطلعت العيون نحوه، ووقف فنظر إلى كل الحـاضرين وظن جون أن مـؤمن قد ضـاع ولكنه شـد القوس فـساد صمت مهيب، وفجأة أبهـر مؤمن الجميع . عندما أطلق السهام الخـمسة الواحد يسبق ما قـبله بسرعة عجـيبة دون أن يحكم تصـويبها وكـأنه يلقى ببضع حصـوات فى الماء!! فأصاب الخـمسة أعواد فـساد صمت مهيب ،ثم قال للشيخ:

ـ ماذا تقول فى ذلك يا شـيخ؟ أنا غير راضٍ عن هذا التحدي. . . . فلتضاعف المسافة، وليكن عوداً واحداً بدلاً من خمسة، وهكذا يكون التحدي.

زاد الصـخب واعـتـرض الـناس.٠. فـالمسـافـة

أصبحت شاسعة، والعود لا يكاد يبين.. ولكن الفارس الطارقى لم يكن ليرفض التحدي... فلقد شد قوسه وكأنه أطبق على أنفاس الجماهير وشد جفونهم ففتحها، وفى الحقيقة لم يقدر علي إصابة الهدف ، وطأطأ رأسه خجلاً.

أما جون فكانت حماسته الانجليزية قد جعلته يهتف لمؤمن فلقد كان هو جمهوره الوحيد.. وبلا مبالاة سدد مؤمن قوسه وهو ينظر لجون.. وقال له:

بارك الله فى الإسلام يا جون وسدد رميته.. وانطلق السهم فقصم العود إلى نصفين ، فانقض الفارس على مؤمن يريد قتله ، إلا أن الشيخ وقف وصاح فيه فرجع.

وهكذا حصلا على الحرية، وحصل كل منهما

على جمل قوى وزاد يكفى بقية الرحلة وعادا من جديد إلى اختراق الصحراء العنيدة.

وفى الطريق قال مؤمن لجون:

ـ إن ما يقلقني.. هذا الفارس الذى تحديته.. إنه سيخرج غداً بقافلة مسلحة... ويبدو أنه من النوع الذى لا يقبل الخسارة.. وأخشى أن يتتبعنا..فما العمل ياجون؟

قال جون :

ـ أسمعت من قبل عن سباق الجمال؟

فهمها مؤمن على الفور وقال له:

ـ يمكن لجملين أن يجعلا من العسير على قافلة اللحاق بنا إذا تسابقنا الآن... حقاً هيا.

اندفع مؤمن يتسابق مع جون بالجملين حتى يزيدا المسافة بينهما وبين الطوارق لأبعد ما يمكن، وبعد فترة اعتدلا في سيرهما ومضت أسابيع عديدة وهما على حالهما بين السير والراحة والتعرض للهوام والثعالب، وكان مؤمن ماهراً في صيد الأرانب البرية التي كانت وجبات دسمة لم يحلم بها جون..

ولقد قرب الماء على النفاد وأدركهما الخوف من العطش، وبينما هما على حالتهما إذا بجون يهتف لمؤمن:

- عزيزى مؤمن.. هناك عين للماء.... انظر هناك.

نظر مؤمن إلى الأفق فرأى سرباً من الطيور يحوم حول مكان ما لا يراه فقال لجون:

ـ أتظن أن هذه الطيور قد تجمعت فوق الماء؟ . . . إذن هيا بنا ولا نضيع الوقت.

كانت تجمعاً صخرياً تحيط به عدة أسنة من الجبال القزمة، فاقتربا إلى أدنى حد، وكان عليهما التوغل أكثر من ذلك، وتقدما حتى اخترقا ممرات ضيقة وفجأة وجدا نفسيهما أمام أسدين غضنفرين كانا يلتهمان فريسة من الغزلان وبدا عليهما الجوع ، ولقد أدركا أنهما سعيدا الحظ عندما أتت فريستان على جملين إلى وكرهما ، ولقد صرخ جون ولم ينزل عن جمله، أما مؤمن فلقد وثب فقابل وثبة عظيمة من الأسد الأول فطوح ذراعه بالسيف فشج رأسه وأرداه فى الحال ، أما الأسد الثانى فلقد التهم رقبة الجمل الذى كان يمتطيه جون وأوقعه على

الأرض ، ولما بدت من جون الحركة سحبه الأسد من جلبابه، وجرى به وهو يصرخ، ولقد فرغ مؤمن من الأسد الأول، ولما رأى جون وسمع صراخه والأسد يفر به من المكان أخرج القوس ثم أرسل دفعة من السهام إليه فأنقذ جون فى اللحظة الأخيرة. . . وجرى إليه ليجده فى حالة ذعر شديدة. . . فأخذ يهدىء من روعه ، ولما اطمأن عليه، عاد فأعمل سيفه فى الجمل المصاب فنحره واستغرقا وقتاً طيباً فى التهام كميات وفيرة من لحم الجمل بعد طهيها وجففا بقية اللحم فى الرمال الساخنة والشمس وحملا زاداً طيباً. . . وهكذا فلقد جرتهما الطيور التى كانت متجمعة لأكل فضلات الأسد إلى مغامرة غير محسوبة أسفرت عن تكملة

الرحلة بجمل واحد.

فكان يركب واحد ويمشى الآخر بالتبادل. . وبعد فـتـرة طويلة نفـد الماء تماماً وعطش الجـمل كـمـا عطشا. . . وكـانت النهاية الحتـمية هى نحـر الجمل الثانى قـبل أن يموت عطشاً، وقـبل أن يموتا أيضاً ، فلقد أخرجا الحوصلة المعوية التى كان مخزناً بها الماء فى بطن الجمل، وشربا ماءها.

وهكذا عادا إلى السـير على الأقـدام. . . تتوالى عليهما الأيام والليـالي، وكل منهما يحلم بالوصول إلى تمبكوتو . . . المدينة الهـدف. . النجـاة قـبل الموت. . كانت الصحراء كالحة قاحلة حالكة ..

ومرة أخرى نفـد كل شئ ، وأصبحا كما أمـسيا



يقاسيان الخطر الماحق وقال جون:

ـ ما أسرع طرق الموت بابنا فى هذه الصحراء يا مؤمن.

فرد عليه الآخر وقد تسلخت وجنتيه وتيبست شفتيه:

أحسن الظن بالله يا صديقي. . أنا أشعر بأننى سأعانى، ولكنى أشعر بأننى لن أموت هنا.

وأصبح قرص الشمس يكبر ويكبر ويتسلط عليهما.

وقال جون وقد بدأ يهذي:

ـ الشمس تهجم علينا يا مؤمن . . إنها ستلتهمنا. .. احذر يا مؤمن.

كانا لايـقدران على الحركـة، وكان النوم يسـيطر عليهما ساعات بعد ساعات .

وكلما أفـاق أحدهمـا شعر بأنه يسـتسلم أكـثر وأكثر، فيلقى نفسه فى كف الرحمن. . . هذه لحظة التـوكل العظمى. . . ونامـا قدر مـا ناما، وأُغـشى عليـهمـا كمـا كـتب لهمـا، وضربـتهـما الشـمس وصفـعتهمـا برودة الليل، وأصبحا جـزءاً من رمال الصحراء، وذهبا فى سُبَاتٍ ، واعتقد كل منهما أنها بداية الطريق للآخرة.

ولكن مؤمن شعر بأن هناك أيدى تحركه، وأن الماء يبلل شفتيه، ولم يعـد يحس بهذا الضوء القاتل . . ضوء الشمس.

وبعد فتـرة فتح عينيه لـيجد جون نائمـاً معه فى خيمة بدوية، وعلى عامود الخـيمة وعاء فخارى كان معلقاً، قام وشرب وأخذ يوقظ جون ، فقام وشرب.

وخرجـا من الخيمة ليـجدا نفسـيهما وسط خـيام وجمال وحياة أخـري. . . ولقد أتى نحوهما بدوى طيب الوجه، فأخذهما وتوجه إلى خيمة أخرى كان فيـها شـيخ القبيـلة ورحب بهما الرجـل عكس ما حدث معهما عند الـطوارق، وأُعدت مائدة شهية، ولم يكن جـون يصـدق أنـه قـد عـاد للحـيـاة من جديد. . . وتسامر الجميع بالليل أمام خروف يُشوى على النار ، وعرف شـيخ القبيلة كل القـصة ونوى مساعدتهما فقال لهما:

اطمئنا. . . فالمسافة قريبة من هنا إلى تمبكوتو. . .

إنه طريق تجارتنا وسيخـرج معكما دليل قوى وبعض التجار إلى هناك.

خرجت بالفـعل قافلة بسيطة ، وبعد مـا سارت بمؤمن وجون مسـافة تقل عن اليوم. . . استـوقفهم مؤمن فجأة ثم همس بكلمات فى أذن قائد القافلة ؛ فحول الجمال مرة أخرى فى طريق العودة.

وكاد جون يجن جنونه وصاح يلوم مؤمن :

ـ ما هذا ما الذى تفعله؟! لماذا ترجع بعد كل هذا الجهد؟!!

فنظر له مؤمن وقال له:

ما كـان أبداً أن أسكت عن الخطر الذى سيـحيق بقبـيلة الرجل الذى أنقذنا من الموت وأكـرمنا وأحبنا

وآوانا.

فصاح به جون:

- أى خطر يا صديقى بالله عليك؟!!!

نظر مؤمن بوجوم وقال:

الطوارق... أنسيت أن القبيلة تقع فى نفس طريق قافلة الطوارق؟وأنهم لن يدعوها حتى يدمروها وينهبوها؟

عاد مؤمن وأخبر الشيخ بما كان من أمر قافلة الطوارق.

فلاحظ شدة تأثر الرجل بالكلام، ولكن لم يتم الشيخ تفكيره حتى علت صيحات النساء خارج الخيمة وحدث هرج ومرج شديدين، وهب مؤمن

وجــون من الخيــمــة ليــريا أن الخطر أصــبح واقعــاً بالفعل.

عشــرة من الفرسان الأشداء من الطوارق يغــيرون على قــبيلة هــزيلة لم يكن أهلهــا على نفس كفــاءة الطوارق لا فى المبارزة ولا فى الرمي... ودار قــتال شديد. أما جون فكان يستــعمل السيف بجدارة، وأما مؤمن فلقد حصد سبعة منهم بالقوس، وقبل أن تراق قطرة دم واحدة كانت الأسهم قد أتت على العشــرة... ولم يكن مؤمن ليــقتل؛ بل لقــد كان السهم يصيب الأطراف.

فأصــبح فوارس الطوارق أسرى لدى القــبيلة فى طرفة عين.

وأعجب الشــيخ من شجاعة مــؤمن وقدرته على

الرمي. . وأقيم في هذه الليلة حفلٌ كبير، ذبحت فيه الذبائح بعدد أفراد القبيلة. . . وتجهزت قافلة غير الأولى وتم صنع هودجٍ فوق جمل كبير ، وفيه استظل مؤمن وجون طوال الرحلة ، أما الطوارق الغزاة فلقد كانوا مقيدين ليباعوا كرقيق فى أسواق تمبكوتو . .

واستمرت الرحلة وقتاً طويلاً. . ولكن الصحراء قد عزفت عن تكشير أنيابها مرة أخرى للرفيقين مؤمن وجون، وبينما هما فى الهودج قال جون:

ـ أرأيت يا صديقي؟ . . . لقد نجانا الله وأوفى بوعده وعلينا نحن أيضاً أن نوفى بعهدنا. . . وأن نحمده ونشكره جهد قوتنا .

ابتسم مؤمن وهو يشرب من قربته ماءً عذباً بارداً

وقال:

- تأكد يا جون أن الدنيـا لا تعدل عند الله جناح بعوضة.. ولو كانت تعدله ماسقى منها الكافر شربة ماء.. مـا حاجة الله بشكرك له وحـمدك؟! هذا لن يزيده ولن ينقصه.

تعجب جون وقال:

- إذن لماذا يطلب منـا ذلك مـا دام لا ينفـعـه فى شئ؟!

قـال مـؤمن وهو ينظر من وراء سـتـارة الهـودج عندما لاحت « تمبكوتو » من بعيد:

- إن الله يأمرنا بالعبادة والشكر حتى ننتفع نحن به، فكلمـا شكرناه وحمـدناه زادنا من فـضله ليس إلا... ثم أبشر ها هى تمبكوتو.

وكـادت الدمـوع أن تفر من الـعيـون بعـد كل هذه المعاناة، ودخلت الجـمال مدينة الجنوب الصـحراوى المخـيف ، وارتمى الاثنان فى أحـضـان النجـاة من الموت ، وجلس جون يدون فى مُذَكِّراته كل مـا مر به فى هذه الرحلة ، ووصف الطريق بكل ما فيه من أخطار وأهوال، بـقى هو ومـؤمن زمـنا طويلاً. . . يجـوبان المدينة المتـواضعـة ، ولقد أبرق جـون إلى إنجلتـرا من خلال المسافـرين إلى حدود القـارة على المحيط ، وعلى ضـوء اكتشافـه أرسلت له الحكومة من يوصله إلى البـحر عن طريق غـرب القارة، ولم يفارق مؤمن لحظة واحدة.

ولقد مرا برحلة عجيبـة فى المحيط سنوردها فيما بعد فى قـصة منفردة وعـبرا مضـيق جبل طارق فى أقصى غرب القارة ثم دخلا إلى البحر المتوسط.

وفى الجزائر أقامت البعثة الانجليزية للكشف الصحراوى حفلاً مهيباً.

كان مقرراً أن يحصل جون على جوهرة الملكة لاستكشاف الصحراء ، ولكنهم أدركوا قيمة هذا الغلام المسلم « **مؤمن** » وقدروا فضله على جون فكانت له هو الآخر جوهرة على مجهوده الضخم الكبير.

هكذا فلقد همس مؤمن فى أذن جون وقال له:

- لوكنت أعرف أن التاج عندما قال لى تمبكوتو كان يقصد ما رأيناه سوياً ما كنت خرجت إليها من البداية. . . ولكنها حكمة الله العظمى « أن الإنسان لا يعلم الغيب»ولكن صدقنى يا جون. . لقد استفدت من هذه الرحلة استفادة تفوق كل جواهر

الدنيـا . . لقـد أدركت أن الله يربيني ويـعلمني. إنه أكبر مما كنت أتخيل. أحبه يا جون.

نظر جون لمؤمن وقال له بهمس حـتى لا يسمعه الناس:

ـ مؤمـن .. ماذا على أن أقـول إذا أردت أن أكون مسلماً؟

انفجر مؤمن بالفرحة وقال له:

ـ كنت على يقين أنك ستقول بعد هذه الرحلة

« لا إله إلا الله محمد رسول الله »

تمت بحمد الله تعالى.

وإلي اللقاء مع مؤمن في ...

مغامراته العجيبة جداً

مغامـرات عجيبــة جـداً

مع تحيات
دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع